

من أجل مواجهة النزاع بين أنظمة القيم أمل التجربة الخلقية

الأب وليد موسى

كلمتي لكم اليوم في افتتاح هذا المؤتمر حول الإشكالية الخلقية ونزاعات أنظمة القيم والأخلاق في المجتمعات المعاصرة ، وفي لبنان بشكل أخص ، ستتمحور حول السؤال الذي يقلقنا جميعاً وهو الذي يدور حول أسباب التصلبات والتفوقعات والمواجهات الحاصلة حالياً شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً بين أنظمة الأديان والقيم والأخلاق، الى حد نشوء حروب أهلية على أساسها، كما هو حاصل على أرض العراق منذ فترة.

أنا أطرح السؤال هذا حيث تكثر الأجوبة العقائدية حوله، مما يعطل إمكانية بحثه ، وهذا ما يعيدنا الى الأسباب التي دعتنا الى اللقاء اليوم معاً والتي يمكن اختصارها بتفكيك الأجوبة القيمية والأخلاقية المسيطرة حالياً بشكل دوغماتي عقائدي، وإعادتها الى مصاف الأسئلة الخلقية التي يجب أن نعيشها كحواجز لتحسين أدائنا الإنساني في علاقاتنا بعضنا مع بعض انطلاقاً من منابعنا الدينية والثقافية المختلفة.

أقول سؤالاً إذاً، لأنّ المشكلة القائمة حالياً هي من الجواب القيمي ، بينما يفترض ان تبقى القيمة الإنسانية بحثاً يستلهم الأجوبة الظرفية الملائمة لكل زمان ومكان، انطلاقاً من المعايير الأخلاقية الثابتة التي تحدّد لنا شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ما يجب أن ننهى نفسنا عنه، عنه من قتل، وسرقة، وكذب، ورياء، واحتيال، وتنصيب، لكي نكون عادلين بعضنا تجاه بعض؛ وما يستحسن أن نقوم به لكي نكون فاضلين من محبة، وأمانة، وصدق، وتواضع ، وشهامة ، وعدل ، وود ، وتضحية ، وغفران الخ...

وأقول سؤالاً أيضاً لأنّ النزاع القائم حالياً بين أنظمة القيم هو في الأجوبة السلوكية المسبقة التي تمليها هذه الأنظمة للحفاظ على مواقعها في

النزاع الثقافي الذي يزداد تصلبًا في الآونة الأخيرة مع ما ينتج عن ذلك من فرقه وتباين في المواقف والسلوك بين الناس، انطلاقًا من تعابيرهم الثقافية ورموزهم العقائدية.

وأقول سؤالاً أخيرًا، لأنه يفترض بالسلوك الإنساني، لكي يبقى محررًا من القيود التعبيرية المسبقة، أن يتسنى لكل فرد بأن يبحث هو بنفسه عن طريقة التصرف الملائمة لكل وضع أو علاقة يعيشها انطلاقًا من معاناته الشخصية، من أجل التوصل إلى الوسائل الملائمة لعيش الفضائل التي تدعو إليها أنظمة القيم جميعًا، في زمانه ومكانه، انطلاقًا من منابعه القيمية الذاتية، وفي حوار مع منابع القيمية الأخرى.

بالأمس أيها السادة، ومنذ أقل من خمسة أشهر، اجتمعنا في مقرّ جامعتنا هذه حول مسألة الديمقراطية في علاقتها مع اللامركزية في أيامنا الحاضرة، وتبين لنا أن هناك مخاطر عديدة تواجه الديمقراطية اليوم حتى في البلدان المتقدمة التي اعتمدت اللامركزية في ممارسة السلطة، وتبين أيضًا أن جلّ هذه المخاطر نابع من الهشاشات الجديدة التي تتعرض لها البنيات المجتمعية في الدول المعاصرة، ومن التعاضدات الجماعية الانتمايية الجديدة من ضمنها، التي غدت تتشكل في إطار تكوينات إقطاعية محلية ومعولمة من أجل تأمين الحماية لهذه الجماعات من جهة، واللاحق بركب السوق المعولم الأحادي الاتجاه من جهة أخرى.

أما اليوم ونحن نتطلع إلى مسألة الخلقية، نجد أننا نواجه الخطر الإقطاعي عينه في اتجاهاته الشمولية والمحلية.

نحن في مسألة الأخلاق نعيش إشكالية مماثلة لإشكالية الديمقراطية، حيث تنحو أنظمة القيم إلى التأصل والتجدر في إطار تشكلات ثقافية وعقائدية ثابتة، تُنزل على الناس بطريقة سلطوية أبوية تتماهى بالطريقة الإقطاعية للحكم.

فإذا بنا اليوم نتجه أكثر وأكثر إلى مواجهة بين هذه الإقطاعيات في ظلّ محور كبير حول منظومة قيمية تدعم العولمة ونتاجها الثقافي، وإذا بهذه المنظومة تجد نفسها أكثر وأكثر في موقع الدفاع عن نفسها، فتنحو هي أيضًا

إلى الممارسات الاقطاعية عينها، متفاعلة سلبيًا أو إيجابًا مع الأنظمة القيمية الأخرى وفقًا لموقفها منها.

من هنا، أنا أتوجه إلى علمكم وضمائركم، أنتم المفكرون والناشطون في حقول الثقافة والعلم والسياسة والدين، لكي تستلهموهم بما يساعدنا جميعًا على إعادة تصويب طريقنا في مجالات القيم، فنستهدي ببحثنا الخلقى المشترك، وبمبادئنا الأخلاقية الأساسية، لنعيد قراءة أنظمتنا الثقافية وسلوكياتنا الاجتماعية، بما يجعلنا أكثر عدالة وأعمق فضيلة في علاقاتنا وتوجهاتنا بعضنا تجاه بعض.